العقــاد والسياســة

د. محمد صابر عرب

ينفرد عباس محمود العقاد (١٨٨٩ – ١٩٦٤م) في وجدان العرب بمكانة خاصة؛ فقد استوعب الرجل تراث أمته وهضم ثقافتها وعايش كل همومها لدرجة أنه أصبح ظاهرة فريدة في عالم السياسة والأدب والفكر الإنساني بشكل عام رغم أنه لم يلق حظًا من التعليم النظامي أكثر من الابتدائية، لكن الرجل قد تملك كل ملامح النبوغ والتفرد مُصِرًّا على أن يعلم نفسه بنفسه، لدرجة أنه فاق كثيرا بعض الحاصلين على الشهادات العليا من الجامعات الأوربية.

يعد العقاد بحق ظاهرة فريدة، فلقد توحدت في شخصيته كل مظاهر العبقرية، فلا يذكره معاصروه إلا مقترنًا برأي جديد أو فكر نادر أو موقف صلب لا يلين، ضاربا عرض الحائط بما يشغل البعض من مصالح تدفع بأصحابها إلى المهادنة.

لقد رفض الرجل دائمًا سياسة التوازنات والمواءمات فهو لا يعرف أنصاف الحلول، لعل النشأة العصامية قد حددت فلسفته في الأدب والسياسة

والحياة؛ عبقريته فقط هي التي دفعت به إلى مقدمة الصفوف، ومنذ أن عرفته الأوساط السياسية والثقافية مع نهايات العقد الأول من القرن الماضي، لم يهادن ولم يجامل ولم يساوم، بل راح يختار موقفه وموقعه بعناية وتفرد. أعترف بأن شخصية العقاد قد بهرتني؛ هذا المتفرد الشامخ الذي انشغل بكل شيء وراح يختار لنفسه موقعًا في مقدمة الكبار من أمثال طه حسين والدكتور هيكل ولطفي السيد.

لعل مدينة أسوان في جنوب مصر بملامحها العبقرية قد شكلت وجدان هذا الفتى، حيث نبض الحياة المصرية أكثر صدقًا وملامح الشخصية المصرية أكثر نقاء وتفردًا؛ في تلك البيئة الصافية النقية نشأ العقاد وقرأ بنهم واستيعاب شديدين تراث أمته أدبًا وشعرًا وسياسة.

واللافت للنظر أن ما كتبه العقاد في الأدب والفكر والثقافة قد شغل الناس ولم يلتفت الكثيرون إلى العقاد السياسي، وقد عنى النقاد ومؤرخوا الأدب بأعمال العقاد بينما أغفل الجانب السياسي في حياة الرجل الذي عايش معارك سياسية طاحنة أدخلته السجن في بعض الأحيان.

لقد حاولت وبرؤية المؤرخ أن أرصد ما يمكن أن يكون تاريخًا سياسيًّا؛ إلا أنه من الصعب فصل العقاد الأديب والمفكر عن العقاد السياسي. إن الحديث

عن العقاد السياسي يقضي بتحديد ثلاث مراحل يبدو وكأن كل مرحلة قد اختلفت عن الأخرى تمامًا وإن كانت جميعها مكملة لبعضها البعض.

المرحلة الأولى من ١٩٠٧ وحتى ١٩١٩، والتي اتسمت بقدر من الحيرة والقلق، فالثورة العرابية بمرارتها وإخفاقاتها كانت ماثلة في فكر الرجل؛ الذي ارتبط وجدانيًّا بعرابي لدرجة أنه رفعه في كتاباته إلى ما يشبه الأساطير، وراح يبرر كل سياساته ويتهم كل منتقديه بالضعف والتخاذل.

وعلى الرغم من أن الحياة السياسية في مصر مع بداية القرن العشرين قد اتسمت بالصخب والتدافع بسبب حركة "مصطفى كامل"؛ الذي استطاع أن يستميل إليه غالبية الشباب، إلا أن العقاد بقى متفردًا رافضًا الانضمام إلى أي من الأحزاب السياسية القائمة وقتئذ، إلى أن قامت ثورة ١٩١٩ وأما أعقبها من ظهور حزب الوفد وظهر العقاد كأحد الفلاسفة الكبار بعد أن ظل ما يقرب من عقدين من الزمان يرصد تفاصيل الحياة المصرية بطريقة المفكر والفيلسوف مؤيدًا لـ "مصطفى كامل" أحيانًا، ومنتقدًا حركته بقسوة شديدة في أحيان أخرى، وخصوصًا فيما يتعلق بعلاقاته بالدولة العثمانية، أو في موقفه من فرنسا،التي كان يعول عليها كثيرًا.

وتبدو مواقف العقاد التي يفسرها البعض على أنها تحمل قدرًا من التناقض حينما يتعاطف مع الحزب الوطني أحيانًا ويهاجمه في أحيان كثيرة، يقرأ ما يكتبه "النديم" بنهم شديد، ويعترف بأنه تأثر به كثيرًا، إلا أنه لا يتردد عن السخرية به في مواقف كثيرة.

لعل الفترة من ١٩١٩ وحتى ١٩٣٥م، تمثل مرحلة أخرى في حياة العقاد، فها هي ثورة ١٩١٩ وقد قطعت عليه تردده نحو الانخراط في العمل السياسي، وراح يكتب مقالاته النارية التي كانت بمثابة منشورات ثورية تعبر عن روح الثورة وأهدافها، ويبدو العقاد - عندئذ - وقد تجاوز مرحلة الشباب، حيث الرؤية السياسية العميقة التي يستند فيها إلى مبررات تاريخية وقانونية تعبر عن ثقافة سياسية واعية، لدرجة أنه قد أصبح بمثابة المعبر عن ضمير الثورة وأهدافها، لذا توطدت علاقاته بـ "سعد زغلول" الذي قدر إمكانات العقاد وطبيعة شخصيته الثائرة وحسه الوطني الرفيع، لذا فقد أنزله مكانة خاصة جعلته أحد المقربين لدى زعامة الوفد والمعبر في أحيان كثيرة عن سياساته وبرامجه، بل إن كثيرًا من المنشورات السرية التي كانت توزعها زعامات الثورة، كان العقاد هو كاتبها، بعد أن اطلع على تفاصيل الثورة واستوعب أسرارها مما عمَّق من شعوره الوطني وطبع كتاباته بطابع الدقة.

لعل العقاد خلال تلك الفترة قد تجاوز مجرد كونه كاتبًا صحفيًّا؛ حيث أصبح واحدًا من الذين يعوَّل على رأيهم، لذا فقد ارتبط بـ "سعد زغلول" ارتباطًا روحيًّا وإنسانيًّا.

وتبقى الفترة من ١٩٣٥ وحتى ١٩٥٢ وكأن العقاد قد تخلى عن دوره الوطني والشعبي بعد أن توفي "سعد زغلول" ١٩٢٧، وتولى زعامة الوفد "مصطفى النحاس" الذي لم يدرك طبيعة شخصية العقاد الذي يرفض الالتزام الحزبي بالمعنى السياسي، ويقع التصادم بين العقاد وزعامة الوفد الجديدة بعد أن تعرضت القضية المصرية لكثير من المساومات التي بددت كثيرًا من نضال الشعب المصري.

لعل معاهدة ١٩٣٦ تمثل ترجمة عملية للواقع المصري الذي اختلف كثيرًا بعد وفاة "سعد زغلول". وما تلى ذلك من انقسامات تعرض لها الوفد بسبب سياسة الزعامة الوفدية الجديدة.

لم يكن العقاد من الذين يقبلون بفكرة المناورة السياسية؛ لذا فقد قدر له يصطدم مع "مصطفى النحاس" بسبب اختيار "توفيق نسيم" رئيسًا للحكومة (نوفمبر ١٩٣٤) بناء على رغبة المندوب السامي البريطاني – وقتئذ – ولم يرفض الوفد هذا الاختيار بسبب ما أبداه "نسيم" من عزمه على عودة دستور

١٩٢٣ وإلغاء دستور صدقي ١٩٣٠، وراح العقاد ينتقد الوزارة الجديدة، بل تجاوزها إلى هجومه على سياسة حزب الوفد التي اعتبرها صنيعة للقصر والإنجليز.

لقد أدرك "النحاس" أن "العقاد" على وشك الإجهاز على شعرة معاوية؛ لذا فقد استدعاه (أكتوبر ١٩٣٥) إلى الإسكندرية حيث كان يقيم "مصطفى النحاس"، ويروي "العقاد" تفاصيل هذا اللقاء: "النحاس: ماذا تصنع يا سيد عباس؟ إن الإنجليز يؤيدون الوزارة وأنا زعيم الأمة أؤيدها والأمة معي، فماذا تصنع أنت بقلمك يا سيد عباس؟ العقاد: أنت زعيم الأمة لأن هؤلاء انتخبوك. ولكنني لست كاتبًا بالانتخاب، قلمي هذا الذي تستضعفه سيسقط لك الوزارة النسيمية قبل أن ينبري هذا القلم وسترى عما قريب".

لقد نجح العقاد بشكل لافت في إثارة الرأي العام على حكومة نسيم من خلال صحيفة "روزاليوسف" التي انفردت بنشر مقالات العقاد اليومية؛ التي راح يصب فيها كل غضبه على الحكومة والوفد معًا، لذا فقد تركت هذه المقالات أثرًا هائلاً في صفوف المصريين مما عجل بإسقاط الحكومة.

لقد راحت تتصاعد حدة المعارك بين "العقاد" والوفد بشكل أخرجها عن حدود الموضوعية بعد أن أصبح مصطلح الخيانة هو سلاح كل من الطرفين ضد الآخر.

لقد جنَّد الوفد كل إمكاناته الإعلامية والسياسية والدعائية للإجهاز على شخص "العقاد" ومستقبله السياسي والأدبي، لدرجة أن رجلاً كـ "مكرم عبيد" –سكرتير عام الوفد- قد اتهم "العقاد" صراحة بالإلحاد: «فهو لا يؤمن بالله – لا عن فكرة أو دراسة – بل لأنه سبحانه وتعالى قد شاء أيكون العقاد أقل مالاً وجاهًا من زملائه ومنافسيه، أو لأنه أقل استمتاعًا بنعيم الحياة من غيره ممن يراهم دونه جداره وعظمة، لذلك يلاحظ الناس على كفره بالله طابعًا خاصًا يميزه عن سائر الملحدين، وهو طابع الانتقام».

لقد راح الوفد يتعقب العقاد في كل مكان ولعب رجاله دورًا في إفساد علاقته بـ"روزاليوسف"؛ التي امتنعت عن نشر مقالاته، ووجد الرجل نفسه في موقف صعب للغاية بعد أن أصبح مستهدفًا من أكبر تيار وطني شهدته مصر خلال النصف الأول من القرن العشرين، هذا التيار الذي شارك "العقاد" في بنائه من خلال كتاباته ابتداء من ثورة ١٩١٩.

وإذا كان الوفد قد خسر رجلا في قامة "العقاد" لكن ثقافتنا العربية قد كسبته مؤرخًا للأدب ومفكرًا وشاعرًا، لذا فقد انكب على الكتابة والقراءة ورغم انخراطه في أحزاب الأقلية ومشاركته في العمل السياسي؛ لكن وجهته الحقيقية راحت نحو الكتابة لكي يقدم لنا خلاصة قراءاته وتجربته من خلال أعماله الكبيرة التي أنجز غالبيتها بعد خروجه من الوفد.

لكن يبقى العقاد السياسي في حاجة إلى مزيد من الدراسة، ولعل المصدر الحقيقي لهذا العمل هو الصحافة التي راح العقاد يواصل كتاباته فيها منذ ١٩٠٧ وحتى وفاته ١٩٦٤.

ما أحوجنا إلى أن نجمع هذا التراث من الصحف لكي يكون في متناول المشتغلين ليس بتاريخ الأدب فقط؛ وإنما لكي يكون في متناول المؤرخين لعلنا نكتشف أن العقاد السياسي لا يقل أهمية عن العقاد الأديب والشاعر والمفكر

د. محمد صابر عرب
رئيس الهيئة العامة لدار الكتب
والوثائق القومية المصرية
Email: chairman@darelkotob.gov.eg